البعد التجريبي لفلسفة الجغرافيا

جيورجي تافادزي، جامعة جريجول روباكيذيه، جورجيا

ترجمة بتصرف

أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة

تستكشف الجغرافيا العلاقات بين المجتمع والبيئة الطبيعية ، يُحوّل البشر البيئة الطبيعية ، مما يؤثر بدوره على المجتمع ، ويُحدده إلى حد ما . لبعض العناصر الجغرافية (مثل المكان والمساحة) تأثير قوي على الهويات الفردية والجماعية ، والوعي بالذات ، والأفعال . ينبغي أن تدرس الجغرافيا فلسفة العلاقات بين هذه العناصر الجغرافية والهويات الفردية والجماعية والفاعلية البشرية . ونظرًا لطبيعتها متعددة التخصصات ، ينبغي على طالب فلسفة الجغرافيا في عملية البحث استخدام منهجيات العلوم الإنسانية والاجتماعية .

تُعدّ الطبيعة متعددة التخصصات الفلسفية للجغرافيا شرطاً أساسياً للبحوث المستقبلية . ويتجلى هذا التعدد في التخصصات في عنوانها : "الجغرافيا الفلسفية" التي تدرس القضايا المهمة ليس فقط للفلسفة ، بل أيضاً للجغرافيا البشرية وللعلوم الاجتماعية بشكل عام . مع ذلك ، تظهر الفلسفة في فلسفة الجغرافيا كصفة ؛ وهذا لا يعني أن فلسفة الجغرافيا أقرب إلى الجغرافيا منها إلى الفلسفة أو العكس . **فلسفة الجغرافيا تقع في فضاء التقاطع بين الفلسفة والجغرافيا** . ولذلك ، فهي تستخدم المفاهيم ذات الأهمية الحاسمة للفلسفة والجغرافيا البشرية . يشمل الإطار المفاهيمي لفلسفة الجغرافيا ثلاثة مستويات من التحليل : المحلي ، والإقليمي ، والعالمية . على المستوى المحلي ، ينبغي لفلسفة الجغرافيا دراسة العلاقات القائمة بين الأماكن / الفضاءات والهويات الفردية / الجماعية .

لا يُفهم المكان هنا كنقطة ثابتة في فضاء متجانس ، بل كعملية وحدث . في هذه العملية ، تكتسب الأماكن هويات جديدة وتفقد هوياتها القديمة ؛ إذ يُعاد تعريفها وتفسيرها باستمرار في التفاعلات المستمرة مع البشر والأماكن الأخرى . وبالتالي ، ينبغي **أن تعتمد فلسفة الجغرافيا على الفهم الديناميكي للمكان** . على المستوى الإقليمي ، يتمثل موضوع فلسفة الجغرافيا في العلاقات بين المفاهيم والهويات الإقليمية والمكانية . في هذا المستوى ، تهتم فلسفة الجغرافيا بالأسئلة الآتية : ما الجوانب التي يمكن تمييزها في عملية (عمليات) تشكيل المفاهيم المكانية الإقليمية ؟ ما تأثير المفاهيم المكانية الإقليمية على هويات سكان منطقة معينة ؟ هل يمكن الجزم بأن المفاهيم الإقليمية المختلفة تعزز تقاليد فكرية مختلفة ؟ يتضح من هذه الأسئلة أن المستوى الإقليمي لفلسفة الجغرافيا ينبغي فهمه في سياق الفلسفة بين الثقافات . وأخيراً ، ينبغي لفلسفة الجغرافيا على المستوى العالمي دراسة الترابط بين العوامل الجغرافية والفاعلية البشرية على نطاق عالمي . يُعدّ تغير المناخ وتطور الوعي المكاني البشري وحالته الراهنة قضايا مهمة يجب تحليلها في السياق المكاني . يُمثل الأول تحديًا خطيرًا للبشرية ، بينما غير الثاني أسلوب حياة البشر جذريًا .

عد البعد التجريبي لفلسفة الجغرافيا الأكثر إثارة للاهتمام ، ولكنه ربما أيضًا الأقل بحثًا في هذا التخصص . يُعدّ هذا البعد الأكثر إثارة للاهتمام لأن فلسفة الجغرافيا لا تقتصر فقط على الصياغات النظرية وبناء إطارها المفاهيمي ، بل ينبغي أن تكون نقاط انطلاق للبحث التجريبي ، الذي يتمثل هدفه النهائي في إظهار الترابطات بين المستويات المحلية والإقليمية والعالمية وطبيعتها الديناميكية . ولتحقيق هذا الهدف ، ينبغي أن تُركز فلسفة الجغرافيا أولاً على المستويين المحلي والإقليمي . فبالبحث في المستوى المحلي فقط

يُمكن فهم معناه في المستوى الإقليمي وتحديد العلاقات بين المحلي والعالمي . من ناحية أخرى، في سياق البحث في المحلي والإقليمي ، يبرز العالمي ، إذ ترتبط الأماكن المختلفة في المنطقة ، ويكتسب الترابط بين المناطق طابعاً عالمياً . إضافةً إلى ذلك ، ينتقل الأفراد باستمرار بين المستويات المحلية والإقليمية والعالمية . لذا ، يصبح البحث في الأماكن والتنقلات والهويات في سياق البعد التجريبي لفلسفة الجغرافيا أمراً ضرورياً . لتوضيح كيف يُمكن للإطار المفاهيمي لفلسفة الجغرافيا أن يُساعد البحث التجريبي ، سأتناول فيما يلي البعثة التي نظّمها معهد الفلسفة والعلوم الاجتماعية برعاية جامعة جريجول روباكيدزه (تبليسي، جورجيا) في خيفسوريتي العليا (منطقة جبلية في شمال جورجيا، بالقرب من الحدود مع الاتحاد الروسي) في صيف عام 2012. كان الهدف من البعثة دراسة علاقات المكان بالهوية ؛ واستكشاف كيفية عمل الأماكن المحددة ؛ ورصد الديناميكية اليومية للمكان وسكانه ؛ وتحليل مواقف السكان الأصليين تجاه الأماكن المقدسة والتاريخية واليومية ؛ واستكشاف هويات الأماكن المختلفة .

كانت القاعدة الرئيسية للبعثة في شاتيلي ، وهي قرية صغيرة في خيفسوريتي العليا (يُطلق السكان الأصليون على هذه المنطقة اسم "بيريكيتا خيفسوريتي") . وقد اختيرت شاتيلي كقاعدة رئيسية للبعثة لأسباب عدة :

(1) في خيفسوريتي ، تحظى الأضرحة المقدسة بأهمية كبيرة . فتجمع الأماكن المقدسة يخلق مساحات مقدسة . ومن المثير للاهتمام دراسة مواقف السكان الأصليين تجاه هذه الأماكن والمساحات ، بالإضافة إلى التأثيرات التي تُمارسها هذه الأماكن والمساحات على هوياتهم الفردية والجماعية . توجد العديد من الأضرحة في شاتيلي . بالإضافة إلى ذلك ، تشتهر شاتيلي بأبراجها (التي كان يسكنها السكان الأصليون حتى خمسينيات القرن العشرين) . وهناك العديد من القصص الشفوية المرتبطة بالأضرحة والأبراج . ويمكن القول إن شاتيلي غنية بالأماكن والمساحات المقدسة والتاريخية ؛

(2) شاتيلي هي القرية الأكثر كثافة سكانية في خيفسوريتي العليا ٢٩٨؛

(3) الهوية الجماعية لشاتيلي هي مكان غريب مليء بالأساطير والخرافات . لذلك ، من المثير للاهتمام استكشاف كيفية تجربة السكان الأصليين لشاتيلي يومياً .

يمكن تقسيم مسار الحملة إلى مرحلتين . في المرحلة الأولى (١ - ٣١ يوليو)، عملت مع الطلاب . أُجري العمل الميداني بشكل رئيسي في شاتيلي . خلال المرحلة التالية (١ أغسطس - ٥ سبتمبر)، واصلت العمل بمفردي . في هذه المرحلة ، زرت أيضاً قرى مجاورة (كيستاني ، موتسو، أردوتي) وأجريت مقابلات معمقة . في الأسبوع الأول من الرحلة ، تعرفنا على السكان الأصليين ، وتجوّلنا في شاتيلي والمناطق المجاورة ، وجمعنا معلومات مباشرة عن الأماكن المهمة (الأضرحة ، الأبراج ، الكنيسة ، سقابي ، سابخنو ، إلخ) . بناءً على هذه المعلومات ، برزت تدريجياً معالم الأماكن المقدسة والتاريخية واليومية التي لعبت دوراً مهماً في حياة السكان الأصليين.

تتكون المساحة المقدسة في شاتيلي من أماكن مقدسة يُطلق عليها السكان الأصليون اسم "خاتي" ("أيقونة") والكنيسة . أما المساحة التاريخية فتتكون من حصون (كفينكيربي أو كوشكبي) و سابخنو (مكان كان يجتمع فيه الرجال الأصليون) . سقابه (حيث كان يُخمر الدستور بييرة الاحتفالات الدينية) يمكن عدها مكاناً يقع على حدود الأماكن المقدسة والتاريخية . يُمنع منعاً باتاً دخول أراضي الخاتي . فقط في عيد أتينجينوبا يُسمح للرجال بدخول "أرض الأيقونات" . حتى في هذه الحالة ، لا يحق لهم الاقتراب من الخاتي ، أي الضريح.

تخضع النساء لقيود أشد : ليس فقط يُمنع من دخول "أرض الأيقونات" ، بل يُمنع أيضًا من المرور بالقرب منها . للنساء "طرق نسائية" خاصة (سادياكو غزيبي) في شاتيلي . ومع ذلك ، لم تشتك لي أي من النساء الأصليات من هذه العادة . يبدو أنهن اعتدن عليها منذ المراهقة . تلعب الخاتيات دورًا هامًا في حياة السكان الأصليين . وقد أقر جميع من قابلتهم بالدور الخاص لهذه الأماكن المقدسة في شاتيلي . وكانوا يعتقدون أنها تحمي شاتيلي وسكانها من المحن . لذلك ، لا ينبغي لأحد أن يسيء إلى الخاتيات . ويتجلى ذلك في تبجيل الأماكن والأماكن المقدسة واتباع التقاليد . قال لي أحد السكان الأصليين : "إذا لم نحتفل بأثينجينوبا ، وإذا لم يضحّ الدستوريون بالحيوانات للخاتيات ، فإننا سنسيء إلى الخاتيات والناس على حد سواء" . يُشكل التمسك بالتقاليد وتبجيل الخاتي جزءًا لا يتجزأ من هوية الرجال المحليين.

في عيد أثينجينوبا في شاتيلي ، يجتمع سكان شاتيلي الأصليون وأحفادهم الذين هاجروا من شاتيلي إلى الأراضي الجورجية المنخفضة في النصف الثاني من القرن العشرين . يُعزز هذا العيد وهذه الأماكن المقدسة هويتهم بقوة . تُعدّ الكنيسة الأرثوذكسية مكانًا مقدسًا آخر في شاتيلي . الكنيسة القديمة التي بُنيت في القرن التاسع عشر خلال حقبة الاستعمار الروسي ، دُمرت لاحقًا في الحقبة السوفيتية . كان الكاهن المحلي أوتشيلوري ضحية للقمع في ثلاثينيات القرن العشرين . ومنذ ذلك الحين ، لم تكن هناك كنيسة في شاتيلي . في عام ٢٠١٠ ، زار قدااسة البطريرك إيليا الثاني ، بطريرك عموم جورجيا ، ورئيس أساقفة متسخيتا-تيليسي ، و متروبوليت أبخازيا وبيتشفينتا ، شاتيلي . وبمباركته ، بدأ بناء كنيسة جديدة . كان البناء قد شارف على الانتهاء عندما كنا نقوم بعملنا الميداني ، وأقام كاهن القداوس . شارك السكان المحليون بحماس في عملية البناء . عد من قابلتهم أن الخاتيات والكنيسة يكملان بعضهما البعض . قال لي أحد مخبري ، وهو رجل في أوائل الستينيات من عمره : "يجب أن نحضر القداوس ، ونذهب إلى الاعتراف ، ونتناول القربان المقدس في الكنيسة . ولكن يجب علينا أيضًا الذهاب إلى الخاتيات ، وإضاءة الشموع هناك ، وتقديم الذبائح" . تُعدّ الكنيسة أيضًا مكانًا مهمًا ، حيث ألغى الفصل المكاني بين الجنسين : حيث يحضر الرجال والنساء القداوس معًا . على النقيض من ذلك ، يُحظر على النساء المشاركة ، حتى في أداء الطقوس التي تُقام في "خاتيس ميتسا" ("أرض الأيقونات").

كما ذكرتُ سابقًا ، يقع السقيفة على حدود الأماكن المقدسة (أرض الأيقونات) والتاريخية (الحصون) . وهذا صحيح أيضًا بشكل غير مباشر : السقيفة هي مكان يُصنع فيه البيرة لعيد أثينجينوبا . لذلك ، فهي مكان مقدس ، ويُحظر دخول النساء إليه . جميع الأعمال في السقيفة يقوم بها الرجال . لكن السقيفة وللمناسبة أيضًا وظيفة اجتماعية أكثر "بساطة" : ففي اليوم الأول من أثينجينوبا ، يُقيم الداكتوريون وليمة في السقيفة ويُقدّمون للضيوف البيرة المُخمّرة محليًا والخافيتسياني . ويجتمع سكان خيفسور في السقيفة ليرفعوا نخب الخاتي وأسلافهم المتوفين المشهورين بأعمالهم البطولية . ولذلك، يندمج الطقس المقدس مع الماضي التاريخي في السقيفة .

تُشكّل قلاع / أبراج شاتيلي (كفيتكيريبي أو كوشكيببي كما يُطلق عليها السكان الأصليون) مساحة تاريخية . وعلى الرغم من قيمتها التاريخية ، فإن حالة الأبراج حرجة للغاية . توجد شقوق في الجدران ، والجزء الداخلي ملوث بشدة بالنفايات . (وخلال المرحلة الأولى من الحملة ، انهارت جدران برجين . بدأت أعمال الترميم ببطء ، وكان هدفها ترميم أبراج محددة ، وليس المجمع بأكمله . علاوة على ذلك ، تجاهل المرممون الأبراج المنهارة بين برججي دار ضيافة ، بالقرب من سايبخنو ، وركزوا على البرج المتضرر في كفيناباني . كان السكان الأصليون قلقين للغاية بشأن الحالة الحرجة للأبراج ، ورأوا أن على الحكومة أن تتصرف بفعالية أكبر ، خشية أن تتفاقم حالتها.

سابيخفنو جزء من الفضاء التاريخي . لعب دورًا بالغ الأهمية في حياة شاتيلي اليومية في العصور السابقة . كان الرجال الذين اجتمعوا هناك يصنعون البارود والأحذية وأدوات منزلية أخرى . لكن الوظيفة الاجتماعية للسابيخفنو كانت الأهم . هنا نوقشت جميع الأمور المهمة للقرية . كما هو الحال مع الأبراج ، أصبح السابيخفنو الآن خاليًا ، ولا يجتمع فيه السكان الأصليون - حتى للدرشة - ناهيك عن مناقشة أي قضايا ملحة في القرية . جرت محاولات لبناء سابيخفنو جديد في ثمانينيات القرن الماضي ، لكنها باءت بالفشل . هناك سببان رئيسيان لتوقف السابيخفنو القديم عن العمل . الأول (والأكثر دراماتيكية) هو الانخفاض الكبير في عدد السكان نتيجة الهجرة إلى الأراضي المنخفضة في النصف الثاني من القرن العشرين .

ثانيًا: يقع السابيخفنو القديم بالقرب من الأبراج ، وكون الأبراج غير مأهولة بالسكان في الوقت الحالي يعني أن موقع السابيخفنو غير مريح للسكان الأصليين الذين يعيشون حول الأماكن المقدسة والتاريخية في شاتيلي ، ويشكلون ثلاثة أحياء صغيرة منفصلة . علاوة على ذلك ، فإنهم الآن لا يصنعون البارود والأحذية بأنفسهم . يرغب السكان المحليون في إعادة تفعيل السابيخفنو، ولكن حتى الآن ليس لديهم فكرة واضحة عن كيفية حل هذه المشكلة .

الخلاصة

تُمارس المساحات المقدسة والتاريخية في شاتيلي وعناصرها (الخاتيس، والكنيسة، والسقيفة، والأبراج، والسابيخفنو) تأثيرًا قويًا على هويات السكان الأصليين . وقد أشار جميع من قابلناهم إلى أن هذه الأماكن كانت ذات أهمية قصوى بالنسبة لهم . تقع المساحات المقدسة والتاريخية في شاتيلي بشكل رئيسي في وسط القرية . ولكن هذا لا يعني أن مساحة الحركة والنشاط اليومي تقع خارج هذه المساحات . بل على العكس ، تتفاعل هذه المساحات وتتقاطع يوميًا مع بعضها البعض بفضل تحركات وتفاعلات السكان الأصليين وزوار شاتيلي . عندما تُحضّر امرأة من خيفسور خبز الخافيتسياني لعيد أئينجينوبا في مطبخها ، يدخل الفضاء المقدس منزلها ، ويخترق فضاء الحياة اليومية ، ويمنح العملية برمتها أهمية وروحًا استثنائيتين .

عندما يُحضّر رجال خيفسور خبز الخافيتسيان والقادا المخبوز منزليًا في سقيفة ، وعندما يشربون البيرة التي يُحضّرّها الدستور، ويهنتون بعضهم البعض بعيد أئينجينوبا ويتبادلون أطراف الحديث اللطيف ، عندها يُشعر بالفضاء اليومي تمامًا في تقاطع الفضاءين المقدس والتاريخي . وأخيرًا ، عندما تغادر فتاة خيفسورية شابة منزلها ... عندما تذهب إلى شالا ، وهو حيّ مجاور، تسلك بالصدفة طريق النساء ، مؤكدةً بذلك على المساحات المقدسة ، و(في هذه الحالة ، المساحات الجندرية) اليومية . في جميع هذه الحالات ، تُخلق المساحات (المقدسة والتاريخية واليومية) من خلال الأماكن . يتفاعل البشر مع هذه الأماكن والفضاءات من خلال تحركاتهم وتفاعلاتهم . وفي أعقاب هذه التحركات والتفاعلات ، تتفاعل وتتقاطع المساحات المقدسة والتاريخية واليومية باستمرار.